

مولاي هشام العلوي

سيرة أمير مبعده: المغرب لناظره قريب

(بيروت: دار الجديد، ٢٠١٥). ٤٥٠ ص.

ساري حنفي

الجديد عام ٢٠١٥ التي فككت من الداخل أسلوب عمل مؤسسة المخزن المغربية منذ عهد محمد الخامس مع تركيز على عهد الحسن الثاني والعروج على المرحلة الحالية من حكم محمد السادس. تأخذنا السيرة إلى رحلة تمكننا من فهم تلاحق الإرث المخزني مع التكنولوجيا السياسية للدولة الوطنية المغربية، بكل ما يطرح ذلك من تناقضات.

- ٢ -

ربما قرأ كثير منا كتاب جيل بيرو صديقنا الملك ليفهم «مخزنة» الاقتصاد واستشراء الفساد في المؤسسة النيوبترومينالية التي يدير الملك الثروة الأساسية للمغرب وكأنها ملكه الخاص، وبالتالي يحتكر السلطة عبر التحكم في الثروة ويؤسس لمنطق شخصنة السلطة من أجل حماية النخبة الحاكمة. وقرأنا لكتّاب مغاربة؛ عبد الله العروبي، غولفرني محمد، إدريس بنعلي وحبیب المالكي، وآخرين غربيين إرنست غيلنر (Ernest Gelner) وكليفورد غريتز (Clifford Geertz) وجون

- ١ -

لقد أظهرت الانتفاضات العربية هشاشة مؤسسة الحكم في كثير من البلدان العربية، حيث دل على ذلك انهيارات المؤسسة من الداخل، وقد ندرت معرفتنا بالأدبيات التي تُظهر الملك/الرئيس كيف يتعامل مع حاشيته والنخبة المتنفعة منه. كان لا بد من انتظار المؤرخ البريطاني الإسرائيلي، آفيشلايم، ليكتب لنا عن بلاط الملك حسين من خلال العلاقات السرية الأردنية - الإسرائيلية في السبعينيات والثمانينيات؛ وكذلك فيلم ناصر الذي أظهر بنشوة كيف كان الزعيم الراحل جمال عبد الناصر يتخذ القرارات الهامة لوحده. وكان لا بد من انتظار كتاب فواز طرابلسي جنوب اليمن في حكم اليسار - شهادة شخصية لنرى رعونة القيادات اليمنية وتصفية الواحد الآخر في الثمانينيات.

ولكن لعلَّ أهم وأغنى ما كُتب عن البلاطات العربية هو سيرة الأمير مولاي هشام العلوي الصادرة ترجمتها عن دار

بمشاعر الغيرة والسيطرة وفرّق تسد. يكشف مولاي هشام الفساد المستشري في أعماق مؤسسة المخزن (أي النخبة الحاكمة الدائرة في فضاء الملك) وكيف يتم الخلط بين الدين (فالملك هو أمير المؤمنين) والقرابة (السلالة العلوية) والسياسة. إنه «النظام المبهم، صفيق الشفافية، ويكره الوضوح. فأعراف القصر الملكي المغربي قائمة على إنزال التورية منزلة القمة من البلاغة. وبناء عليه، فالخنوع في قاموسها صنو المرونة، وتراجع المرء عن مواقفه منتهى الحكمة» (ص ٢٠).

في السيرة كثير من المفاجآت ومنها العلاقة بين أنظمة الاستبداد الملكية فيما بينها (وبخاصة بين المغرب، والأردن والسعودية والإمارات) وكيف قدم الملك حسين بعد الانقلاب الأول النصح للملك الحسن الثاني بالضرب بشدة على يد المعارضين وضرورة القمع؛ وكيف اشترى الحسن الثاني المعارضة اليسارية بسبب هزالتها وضعف مناعتها أمام إغراءات السلطة ومظاهرها من سيارات مرسيدس والبزات المذيلة بالماركات الراقية، وحفلات الاستقبال. يقدم الكتاب مصدراً تاريخياً من داخل القصر إثباتاً على أمر الملك محمد الخامس للاستخبارات بقتل المعارض المهدي بن بركة، مجهضاً إمكان الوساطة بين العرش والحركة الوطنية آنذاك.

- ٤ -

أهمية هذه السيرة أننا أمام أمير (مولاي هشام) قد نضج علمياً وسياسياً وهو قادر من خلال سيرته ليس فقط على نقد استبداد واحتكار كُلي للسلطة ولكن أيضاً على نقد نفسه: «لقد بدا لي الماضي عقيماً وتافهاً، فعندما أردت مساعدة الملكية في المغرب،

واتربوري وريمي لوفو ومريم كاتيس، لكن لم تقدم هذه الدراسات الزخم المعلوماتي والتحليلي الكافي لفهم آليات عمل هذه المؤسسة ومحاولة إضفاء الشرعية على نهب المملكة بلا ضجيج كما فعلت السيرة الحميمية لمولاي هشام. هذا الأمير المُبعد هو ابن عم محمد السادس ملك المغرب الحالي الذي ترعرع في الرباط مع والده مولاي عبد الله ووالدته لمياء رياض الصلح؛ وقد أمنت له خالته منى الصلح والدة الأمير طلال بن عبد العزيز العلاقات السياسية والاقتصادية مع الشرق والخليج العربي وكذلك مع آل سعود.

- ٣ -

نحن أمام سرد درامي لحياة القصور ودهاليزها وعلاقاتها وبنيتها المغربية الداخلية وطقوسها من الحريم والحرائر الأتراك والأفارقة إلى المهرّجين والحكواتيين/ القصاصين. لا يكاد يصدق المرء أننا لسنا في روايات ألف ليلة وليلة وإنما في بلاط ملكي في القرن العشرين حيث يملك السلطان كل شيء. تصعقك سريالية الملك الحسن الثاني الذي استقبل الملك حسين بـ «الشورت» وترك طائرة ملكة بريطانيا تحوم لساعة فوق أرض المغرب لتأخره عن الوصول إلى المطار وقطع الكهرباء في حفلة العشاء؛ كما تُذهك درجة البذخ عند أفراد العائلة المالكة على طريقة الأثرياء الجدد في مغرب أنسم بطبقة واسعة فقيرة مدقعة. الحسن الثاني معطاء لحاشيته والشريحة الزبونية التي تربت على الفئات الذي يرميه لهم، ولكن هو الملك الذي يخشى على عرشه الهزيل من أخيه وابنه ولي العهد إلى درجة وضعهما في الإقامة الجبرية لفترات تتجاوز السنة. إنها لعبة الحب والكره بأن واحد ممزوج

العشرون، أي الفصل المظلم في تاريخ المغرب من الاختفاء والسجون السوداء في تازمات، فقد كانت منصفة للسرد التاريخي للتغيرات التي شهدتها الملكية في أواخر عهد الحسن الثاني واستكملها ابنه الملك محمد السادس، بما في ذلك هيئة العدل والإنصاف وبعض الإصلاحات الدستورية. ولكن مولاي هشام قد وجّه نقداً لازعاً لمن سمي نفسه ملك الفقراء (محمد السادس) لأنه برأيه لم يفهم حتى الآن ما تقتضيه المرحلة من إصلاحات وإعادة النظر في بنية العلاقة مع الشعب وبخاصة بعد ٢٠١١.

برأيه، الإصلاحات هي ليست أكثر من تجميلية وتخديرية وُجدت لوأد حركة ٢٠ فبراير واستيعاب غضب الشارع. وينظر مولاي هشام إلى حكومة حزب العدالة والتنمية لبنكيران على أنها دمية بيد الملك؛ وهنا قد اختلف معه قليلاً. فالإسلاميون المغاربة نموذج رائد في التغيّر التدريجي باتجاه الليبرالية السياسية ولو أن هذا غير كافٍ. كما إنهم استطاعوا دفع الاقتصاد المغربي إلى مستويات متسارعة من النمو في السنوات الخمس السالفة، بما في ذلك استثمارات مغربية في القارة الأفريقية. وبينما ينبغي علينا كمثقفين أن ندفع كل الأحزاب السياسية إلى المزيد من نقد مؤسسات الاستبداد الراهنة وتفكيك بنى الفساد ولكن علينا الانتباه إلى تعقيدات التغيير من داخل السلطة الاستبدادية.

- ٦ -

من الغريب أن هذا الكتاب قد أحدث ضجة في فرنسا وبعض البلدان العربية أكثر منه من المغرب، حيث لم أجد مراجعة نقدية واحدة له □

ضللت طريقي، وانغمست في مستنقع من الوحل عنوانه الرداءة وهويته الانحطاط، وعملته الطمع، ويعج بقوم يجتروا اللؤم ويثيرون الاشمئزاز». (ص ٣٦٣) فالأمير قد أنضجته تجربته في الدراسة في برنستون والعمل في أبو ظبي وعمان وكوسوفو. لقد استفاق الأمير الذي اعتاد أن يغرد خارج السرب منذ أن قرر الانتقال من مدرسة القصر (المولوية) إلى المدرسة الأمريكية وانتقد تصرفات وقرارات عمه الحسن الثاني، وساعده على ذلك استبعاد الملك له من تأدية أي دور هام في السياسة. وزاد على ذلك الملك محمد السادس الذي منعه من دخول القصر الملكي بدون دعوة رسمية. تدريجياً، تحول مولاي هشام من الأمير إلى الأمير - المواطن الذي يمارس النقد اللاذع مطالباً الملكية بالتحول إلى الملكية الدستورية وتحويل أموال البلاط إلى الميزانية العامة وإعطاء البرلمان والحكومة الدور الذي يستحقانه كما في الملكيات الغربية.

ويسجل أيضاً نقده من يسميهم «الانتظاريون» الذين يخافون التغيير. وهنا يستحضر الكاتب الفنان الكوميدي الساخر بزي (أحمد سنوسي) الذي قال: «إن المغرب قد تحول من بلد مريض إلى قاعة انتظار لثلاثين مليون مغربي» وأحياناً إلى قاعة مغادرة لحفنة من المحظوظين، وشاطئ يأس لقوارب الهجرة غير الشرعية. لقد دفع مولاي هشام ثمن مواقفه في ابتعاد حتى عائلته عنه (أمه، وأخوه وأخته) ورضوخهم لشروط الملك محمد السادس.

- ٥ -

وإذا كانت السيرة قد فضحت الخلل داخل مؤسسة المخزن بما في ذلك سنوات الرصاص